الفقر والقدر

إن الفقر والبؤس الذي يعيشه مئات الملايين من الناس ليس صدفة، أو ضربة حظ، أو قدراً مكتوباً لا يملك الإنسان أن يفعل حياله شيئاً كما يعتقد الكثير من البشر. إنما الفقر هو حصيلة مواقف فردية وجماعية سلبية، وثقافات شعبية تجاوزها الزمن، ونظم تعليم وتربية مجتمعية متخلفة، وسياسات حكومية لا تسعى إلى تحقيق عدالة اجتماعية، وفلسفات حياتية تتجه إلى التفرقة ضد بعض الناس دون غيرهم. وهذا يجعل علاج الفقر والحاجة والمرض وغيرها من آفات مجتمعية مسؤولية جماعية ذات أبعاد ثقافية واجتماعية وسياسية، لا بد أن تبدأ وتنتهي بتغيير السياسات والفلسفات الحياتية المتبعة، وتبديل الدارج من المواقف السلبية، وتطوير السائد من العادات والتقاليد المهترئة، ورفع مستوى المؤسسات التعليمية والقائمين عليها من مدرسين ومسئولين، وتطوير مناهج التعليم وأساليب التربية والتدريس كي يكون في مقدورها معايشة العصر والتجاوب مع احتياجات مجتمع متخلف يسعى إلى النهوض وتحقيق التقدم.

وخلافا لما يعتقد البعض من الناس، وما يُروج له بعض المتزمتين من أتباع الديانات المختلفة، لا يوجد للبؤس الجماعي والهزائم الشعبية علاقة بالقدر أو بغضب إلهي... إن الله لا يغضب من فرد أو من جماعة صغيرة لدرجة تدفعه إلى الانتقام من شعوب أو أمم بأكملها، خاصة وأنه من المفروض أن يُحاسب كل إنسان على ما فعل وعلى ما فشل أن يفعل في الآخرة... في يوم الحساب والعقاب والثواب. كما أن العقاب الجماعي بسبب انحرافات فردية وجهوية يتنافى مع مفهوم العدل الإلهي وكون الله رحمن رحيم.

إن البؤس والفقر والفشل والهزائم والتخلف هي ظواهر لحالات مجتمعية مرضية تتصف بسوء الإدارة والحكم، والتبذير، والإيمان بالخرافات والسحر والشعوذة، وإتباع سياسات اقتصادية واجتماعية جاهلة أو قديمة تجاوزها الزمن. كما أنها تأتي نتيجة لقيام الأثرياء والأقوياء بارتكاب مخالفات قانونية وأخلاقية تتسبب في هدر المال العام والخاص، واتخاذ مواقف رسمية وشعبية تضطهد الفكر والمفكرين، وتحبس الحرية خلف قضبان حديدية. إن ثقافة اجتماعية وسياسية تنتقص من قيمة العلم والعلماء، وتعمل بوعي ومن دون وعي على تهجير ما لدى الأمة من ثروات بشرية مجتمعية وعقول مبدعة وخلاقة هي ثقافة تعمل ضد الأمة المعنية وتسهم بفاعلية في تكريس الفقر والبؤس، وتوطين الجهل والتخلف.

إن الهروب من مواجهة الواقع، وتجنب الاعتراف بالمسؤولية الفردية والجماعية والمجتمعية عن حالات الفقر والبؤس والتخلف وفقدان الثقة بالذات قاد العديد من الشعوب إلى إلقاء المسؤولية على القدر

والغير، وكأن الله يفرق بين الناس والشعوب، وأنه أراد لشعوب أن تعيش حياتها في فقر وبؤس، بينما أراد لغيرها أن تعيش في بحبوحة ورخاء. وبسبب هذه القناعة وهذا الموقف الذي ينكر على الله عدالته، فإن البعض اتجه إلى الدعاء إلى الله كي ينقذهم مما هم فيه من فقر وبؤس وظلم، وذلك كمن يتسول في الشوارع طلباً لمساعدة مالية من المارة. وعلى الرغم من ايمان أتباع معظم الديانات بأن الله يستجيب للدعاء، إلا أن الاستجابة للدعاء لا بد وأن تكون مقرونة بالعمل المنتج، والالتزام بأخلاقيات حميدة، والسلوك سلوكاً يعترف بحقوق الغير من الناس، ويسهم في إثراء حياة المجتمع ككل.

إن التغلب على حالات التخلف الجماعية لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الاعتراف بالوضع المتخلف أولاً، والاعتراف بالمسؤولية الجماعية عن التخلف ثانياً، وإعادة النظر في طرق التفكير وأساليب العمل والسياسات المتبعة ثالثاً، واستبدال ما هو بحاجة لاستبدال من حكام ونظم وتقاليد، وتطوير طرق التفكير كي تستوعب منطق العلم ويصبح بإمكانها مسايرة مسيرة التطور الحضارية الإنسانية رابعاً، والعمل على تطوير مناهج التعليم والتربية، وتقدير العلم والعلماء، وتوظيف كل الثروات البشرية المتاحة في سبيل نهضة مجتمعية شاملة. ودون ذلك، لا يمكن لأمة تعاني التخلف والجهل وسوء الإدارة واستبداد الحكم أن تلحق بركب الحضارة الإنسانية وتتعايش مع الزمن الذي لا يتركها تعيش حياتها في الظلام.

د. محمد ربيع
أكتوبر 2007
www.yazour.com